المحاضرة الخامسة: النظريات المفسرة لتكنولوجيا وسائل الاتصال: نظرية الحتمية التكنولوجية لمارشال ماكلوهان

في البداية يمكن القول أن الصراعات العلمية القائمة كانت حول مفهوم الاتصال والإعلام والعلاقة بينهما، أما حاليا فإن أكثر ما هو متطرق إليه هو تأثير تكنولوجيات الاتصال والإعلام فما المقصود بها؟

ثورة الاتصال، الثورة الإعلامية، تكنولوجيا الاتصال هي كلها مصطلحات تتصل بمفهوم واحد يعبّر عن اصطباغ الحضارة بالوسائل التكنولوجية الحديثة المستخدمة.

إن تحديد تاريخ مصطلح الثورة الاتصالية، يرتبط بظهور كلمة "ثورة" لأول مرة في الأدبيات الإعلامية في تقرير قدمه "**جورج بومبيدو**" بشأن إدماج التلفون والحاسوب في جهاز واحد، ولكن بنظام مختلف يسمح من خلاله بتغيير المعطيات وبين أجهزة الحاسوب عبر الكابلات والمحطات وتقوية الموجة والأقمار الاصطناعية في عملية اتصالات أسرع وأطلقا على الإدماج تسمية "télématique" وتكنولوجيا الاتصال أو المرتبطة بمصطلح ثورة الاتصال وهي ذلك الانفجار في معالجة المعلومات وبثها في شكل آلي، موسع، هائل وشامل وباستخدام متميز للأقمار الاصطناعية وبفورية الإعلام المنقول، الأمر الذي فتح آفاقا لا حدود لها من التطور وكان وراء هذا التطور التكنولوجي والتسارع الهائل في الاتصال والبث ظهور ما سماه ماكلوهان بـ"القرية الكونية".[1]

لقد عملت وسائل الإعلام على إخفاء الحدود الجغرافية والزمنية في العالم الواحد، فبفضل الأقمار الاصطناعية والتلفزيونات وشبكات البث والآلات الحاسبة والحواسيب تحوّل العالم كما قال "ماكلوهان" إلى مجرد قرية كونية، أين أطلق هذا المصطلح عام 1964، حيث يرى ماكلوهان أن البيئة أو الظروف المحيطة بالإنسان تصبح وسيلة إلى تحديد دوره فيها، واختراع المطبعة قد خلق تفكيرا القائم على السطور والتتابع المنطقي وفصل الفكر عن العمل، أما بظهور التلفزيون ... أصبح الفكر والعمل أكثر اتصالا وأصبحت المشاركة الاجتماعية أكبر. إننا نعيش مرة أخرى في قرية". فـ "**ماكلوهان**" يقول: "أنا أسمع، أرى، أنا موجود في قرية...".

1. **مضمون النظرية:** ترجع هذه النظرية إلى جهود مارشال ماكلوهان وهارودنيس، حيث ركزا في تحليل عملية الاتصال على التكنولوجيا المستعملة في وسيلة الاتصال

---

[1] مؤيد عبد الجبار: العولمة الإعلامية والأمن القومي العربي، الأهلية للنشر والتوزيع، ط1،2002. ص54

التي تفرض هيمنتها في كل مرحلة تاريخية ، فالحتمية التكنولوجية من النظريات المادية التي اهتمت بتأثير تكنولوجيا وسائل الإعلام على شعور و تفكير و سلوك الأفراد،و رأى مارشال أن الوسيلة هي الرسالة بمعنى أن مضمون أي وسيلة هو دائما وسيلة أخرى ، وان المتلقي يجب أن يشعر بأنه مخلوق له كيان مستقل قادر على التغلب على هذه الحتمية التي نشأت نتيجة تجاهل الناس لما يحدث حولهم ..

❖ **فروض نظرية ماكلوهان :**

- وسائل الاتصال هي امتداد لحواس الإنسان : يرى أن الناس يتكيفون مع ظروف البيئة في كل عصر من خلال استخدام حواس معينة ذات صلة بنوع الوسيلة وطريقة عرضها ،حيث يقسم ماكلوهان تطور الاتصال إلى مرحلة كتابة ، ثم مرحلة طباعة ، وبعدها مراحل الوسائل الإلكترونية ,.
- الوسيلة هي الرسالة :بمعنى أن طبيعة كل وسيلة و ليس مضمونها هو الأساس في تشكيل المجتمعات على أساس لكل وسيلة جمهورها الخاص الذي يفيد ما عرضته الوسيلة و خصائصها و مميزاتها .
- وسائل الاتصال فيها على حد تعبيره الساخنة و الباردة :فالأولى ساخنة تقليدية سهلة يتلقى فيها المتلقي المضمون بطريقة جاهزة لا تحتاج منه إلى جهد تخيل مثل إذاعة ،طباعة ،سينما ..أما الباردة هي الوسائل الإكترونية التي تستغرق جهداو ووقتا و فرصة للتخيل مثل تلفزيون أنترنت .

❖ ويمكن القول أن هذا التطور التكنولوجي هو نتاج تفاعل ثلاث مجالات هي:

- مجال الاتصالات السلكية واللاسلكية
- مجال السمعيات والبصريات
- مجال المعلوماتية[2]

❖ **مراحل التطور التاريخي لوسائل االإتصال عند مارشال ماكلوهان :**

المرحلة الشفوية (مرحلة ماقبل التعلم أو المرحلة القبلية).

مرحلة الكتابة (ظهرت بعد هومر في اليونان و استمرت ألفي عام).

مرحلة الطباعة (استمرت من 1500 إلى سنة 1900 تقريبا .)

مرحلة وسائل الإعلام الإلكترونية (من سنة 1900 حتى السبعينيات من القرن الماضي).

---

[2] بوعلي نصير: الإعلام والقيم. دار الهدى، الجزائر، 2005، ص47.

❖ **النقد الموجه للنظرية :**

- نفدها ريتشارد بلاك أن القرية العالمية التي زعم ماكلوهان وجودها لم يعد لها وجود حقيقي في المجتمع المعاصر .
- أن التقنيات الحديثة وسائل تخاطب الأفراد و تلبي حاجاتهم و رغباتهم مما نتج تقلص أعداد الجماهير التي تشاهد برامج الشبكات الرئيسية و خدمات الإذاعة والتلفزيون .

ا. اتصال جديد أم عولمة إعلامية .....

مع دخول الاتصال في زخم التكنولوجيا والتطورات الهائلة أصبح لا يتماشى والنظرة التقليدية إليه كمجرد عملية تكون بين أطراف معينة، إنما أصبح بشكل آخر في ظل العالمية واللامحدودية في بث المحتوى الإعلامي، وبذلك فإعادة النظر فيه ضرورة حتمية، فقد أصبح من الصعب التسليم بالتعريف البسيط الذي ينظر للإعلام أو الاتصال الجماهيري على أنه مجرد نقل وتوصيل رسائل نمطية إلى جماهير غير متجانسة.

وفي هذا الصدد يطرح "أحمد مصطفى عمر" تعريفا جديدا للإعلام في عصر العولمة فيقول: "إن إعلام العولمة هو سلطة تكنولوجية ذات منظومات معقدة لا تلتزم بالحدود الوطنية للدول[3]، وإنما تطرح حدود فضائية غير مرئية ترسمها شبكات اتصالية معلوماتية على أسس سياسية واقتصادية وثقافية وفكرية لتقيم عالما من دون دولة ومن دولة أمة... وهو عالم المؤسسات تتمركز وتعمل تحت إمرة المنظمات خاصة وشركات متعددة الجنسيات يتسم مضمونه بالعالمية والتوحد على رغم تنوع رسائله التي تبث عبر وسائل تتخطى الزمان والمكان".

ويمكن القول بأن الإعلام في عصر العولمة قد اتخذ عدة أبعاد واتسم بمجموعة من الميزات مثل "زيادة عمليات التدفق الإعلامي عبر الحدود الوطنية للدول، وهو تدفق تقف خلفه شركات وشبكات إعلامية عملاقة قادرة على الوصول بالبث إلى أية منظمات في العالم، كما أن الثورة الهائلة التي تحققت في مجالات الاتصال والمعلومات تعتبر من المظاهر الرئيسية للعولمة، خصوصا وأنها تلقي بتأثيراتها على العديد من المجالات الأخرى، وتكفي الإشارة هنا إلى الإمكانيات التي تتيحها شبكة الإنترنيت بشأن إجراء الاتصالات وتبادل المعلومات

---

[3] عيساني رحيمة: مدخل إلى الإعلام والاتصال، جدار للكتاب، عمان، 2008، ص169-170

وإبرام الحوارات حول العالم وهو ما حدا بالبعض إلى وصف المجتمع في الوقت الراهن بأنه مجتمع المعلومات".[4]

ب. **سمات الاتصال في عصر التكنولوجيا:** يتميز بما يلي:

1- التفاعلية Interactivité: وتطلق على الدرجة التي يكون فيها للمشاركين في عملية الاتصال تأثير في الأدوار ويستطيعون تبادلها، ويطلق على ممارساته الممارسة المتبادلة أو التفاعلية ويطلق على القائمين بالاتصال لفظ "المشاركين"، وبذلك تدخل مصطلحات جديدة في هذه العملية الاتصالية مثل: "الممارسة الثنائية التبادل"، "التحكم"، ومثال على ذلك التفاعلية في بعض أنظمة النصوص المتلفزة.

2- اللاجماهيرية Demassiflcation: وتعني أن الرسالة الاتصالية يمكن أن تتوجه إلى فرد واحد أو إلى جماعة معينة، وليس إلى جماهير ضخمة كما كان في الماضي، وتعني أيضا درجة التحكم في نظام الاتصال.

3- اللاتزامنية: A Synchronisation: وتعني إمكانية إرسال الرسائل واستقبالها في الوقت المناسب للفرد المستخدم ولا تتطلب من كل المشاركين أن يستخدموا النظام في الوقت نفسه، كما هو الحال في البريد الإلكتروني.

4- قابلية التحرك أو الحركية Mobility: هناك وسائل اتصالية كثيرة يمكن استخدامها في الاتصال من أي مكان إلى آخر كما هو الحال في التليفون النقال، تليفون السيارة أو الطائرة، وجهاز الفيديو ويوضع في الجيب، وجهاز "فاكس ميل" يوضع في السيارة، وحاسوب آلي نقال مزود بطابعة.

5- قابلية التحويل Convertibility: وتتمثل في قدرة وسائل الإعلام على نقل المعلومات من وسيط إلى آخر كالتقنيات التي يمكنها تحويل الرسالة المسموعة إلى رسالة مطبوعة وبالعكس، وهي في طريقها لتحقيق نظام الترجمة المالية، ظهرت مقدماته في نظام "**مينتيل**" الفرنسي.

6- قابلية التوصيل Connectivity: تعني إمكانية توصيل الأجهزة الاتصالية بتنويعها ووصلها مع أجهزة أخرى مهما كانت الشركة الصانعة لها أو البلد الذي أنتجت فيه.

---

[4] منير حجاب: الموسوعة الإعلامية، م5، دار الفجر، مصر، ص.1757

7- الشيوع والانتشار Ubiquity: ويعني الانتشار المنهجي لنظام وسائل الاتصال حول العالم وفي داخل كل طبقة من طبقات المجتمع وكل وسيلة تظهر تبدو في البداية على أنها تَرَف ثم تتحول بعد ذلك إلى ضرورة.

8- التدويل أو الكونية Globalization: أصبحت البيئة الأساسية لتقنية المعلومات بيئة عالمية دولية من خلال تبادل المعلومات ونقلها والحصول عليها إلكترونيا عبر الحدود الدولية في أي مكان في العالم.[5]

ومن أهم السمات المميزة للعولمة الإعلامية: "أنها انهيار السيادة الإعلامية للدول في ظل تراجع السيادة الوطنية أو القومية، كذا في ظل انتشار فكرة السماوات المفتوحة وذيوع استخدام أنظمة البث الفضائي. [6]

ومن المفاهيم الجديدة التي دخلت ميدان الاتصال ما يسمى بالهيمنة الإعلامية وهي العملية التي يخضع بموجبها نظام الاتصال لدولة معينة أو لمجموعة من الدول، وذلك من حيث ملكية وسائل الإعلام وتوزيع الوسائل الإعلامية ومضمونها لنفوذ وضغط المصالح الاتصالية للدول، من دون أن يكون أي تأثير في اتجاه معاكس من الدول الخاضعة.

---

[5] زكي حسين الوردي، جميل لازم المالكي: المجتمع والمعلومات، دار الرواق للنشر، عمان ط1. 2006، ص230- 231.

[6] ممدوح محمود منصور: العولمة دراسة في المفهوم والظاهرة والأبعاد. د س ن، ص135.